﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [يوسف: 105 - 107]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانْتِقالُ مِنَ الأدلّةِ القُرآنيّةِ إلى الأدلّةِ الكَونيَّةِ

بعد أنْ بيّنَ السّياقُ السّابقُ أنّ أكثرَ النّاس لا يُؤمنون، حتّى وإنْ حَرَصَ الرّسولُ على إيمانِهم، وجاءَهُم بأعظم الآياتِ الدّالّةِ على صدقِ الرّسالةِ، ووَحدانيّةِ اللّه، وقُدرتِه في خلقِه سبحانَه، دونَ أن يَسألَهُم أجرًا؛ ناسبَ أن يذكُرَ هنا عظيمَ الآياتِ في السّماواتِ والأرضِ، الّتي يراها النّاسُ أمامَهم، فيمرّونَ عليها، ولا يؤمنون أو يَعتبِرونَ بعظيمِها، فالانتقالُ من بيانِ كفرِ الجاحدينَ بآياتِ القرآنِ إلى بيانِ كفرِهم بآياتِ الكونِ المنشورِ، فيهِ بيانُ كفرِهم بسببِ جُحودِهم بعمومِ الآياتِ الدّالّةِ على الإيمانِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَأَيِّن﴾: فيها أربعُ لغاتٍ: (كَأيِّن)، و(كائِن) بوزن كاعِنٍ، و(كَأْين) الهمزةُ بعدَ الكاف بوزن كعْين، و(كَئِنْ) في وزن كَعِنْ[1]، وهذه اللّغات في معنى (كم)[2]، وتأويلُه: التَّكثيرُ[3]، ومعناها في الآية: "كَأيِّ عددٍ شئتَ منَ الآياتِ والعلاماتِ الدّالَّةِ على وجودِ الصّانعِ ووَحدَتِه، وكمالِ علمِه وقدرتِه وحكمتِهِ غيرِ هذه الآيةِ الّتي جئتَ بها"[4]؛ فإنّهم لا يُؤمنون.

(1) الغزنويّ، باهر البرهان: 1/325.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/168.
(3) الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني، ص: 133.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/309.

2) ﴿يَمُرُّونَ﴾: جَذرُ الكلمة (مرّ)؛ ومعناه: المُضيُّ والاجتيازُ بالشّيء دونَ توقُّفٍ، ويُقالُ لما هو خِلافُ الحَلاوةِ والطّيبِ: المُرُّ؛ فمرارةُ الشّيءِ تمنعُ النّاسَ منَ المُكث فيه، وسُمّي المَصيرُ - مفرد المُصران - الأمَرَّ؛ لأنّه غيرُ طيِّبٍ، ثمّ سُمّيت بعدَ ذلكَ كلُّ شدّةٍ وشديدةٍ بهذا البِناءِ، يَقولون: أمرَرتُ الحبلَ: فَتَلتَهُ، وهو مُمَرٌّ، والمَرُّ: شدّةُ الفَتلِ، والمَريرُ: الحبلُ المَفتولُ[1].

والمعنى المرادُ في الآية: بيانُ كثرةِ مرورِهم على الآيات البيّنات منَ الخلقِ دونَ أنْ يؤثِّرَ ذلك في نفوسِهم وقلوبِهم، فهُم لا يؤمِنونَ، وقدِ استعملَ القرآنُ ما كان لجزءٍ يسيرٍ منَ الزّمانِ مرَّةً ومرّتين، قال تعالى: ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾ [الأنفال: 56]، وقال: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ [التوبة: 13]، وقال: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ﴾ [التّوبة: 80]، وقال: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾ [الإسراء: 4]، استبشارًا بسرعة الزّوالِ.

3) ﴿مُعۡرِضُونَ﴾: جَذرُ الكلمة هو (عرض)؛ وعارضتُ فلانًا؛ أي: أخذَ في طريقٍ، وأخذتُ في طريقٍ غيرِه، ثمّ لَقيتُهُ. واعترضَ الشّيءُ؛ أي: صارَ عارِضًا كالخَشَبةِ المُعترِضَةِ في النّهر[2]. والعَرَضُ والعارِضُ: الآفةُ تَعرِضُ في الشَّيءِ. وشُبهَةٌ عارِضةٌ: مُعترِضَةٌ في الفؤاد[3]. وأعرضتُ عنه؛ أضربتُ وولَّيتُ عنه، وحقيقتُه جعلُ الهمزةِ للصَّيرورة؛ أي: أخَذتُ عَرضًا؛ أي: جانبًا غيرَ الجانبِ الّذي هو فيه[4]، والمقصودُ بالإعراضِ في الآيةِ عدمُ التّفكُّرِ والتَّدبُّرِ في الآيات، ومعاملَتُها معاملةَ الشَّيءِ المُعرَضِ عنه، المكروهِ النَّظرُ فيه.

4) ﴿غَٰشِيَةٞ﴾: جَذرُ الكلمة هو (غشي)؛ والغَشيُ والغَشَيانُ: الإحاطةُ من كلِّ جانبٍ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ﴾ [لقمان: 32]، وقولُه تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: 54]. والغاشيةُ الحادِثةُ الّتي تُحيطُ بالنّاسِ، والعربُ يُؤنِّثونَ هذه الحوادثَ مثلَ: الطّامّةِ، والصّاخّةِ، والدّاهيَةِ، والمُصيبَةِ، والكارثَةِ، والحادِثَةِ، والواقِعَةِ، والحاقَّةِ[5]. والغِشاوَةُ: ما غَشي القلبَ من رَينِ الطّبعِ. غشي: غاشية، وغاشيةُ السَّيفِ والرَّحلِ: غِطاؤه. والرَّجلُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرر)، والرّاغب، المفردات: (مرر).
(2) الخليل، العين: (عرض).
(3) ابن سيده، المحكم: (عرض).
(4) الفيومي، المصباح المُنير: (عرض).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.

يَستَغشي ثَوبَه كي لا يسمَعَ ولا يَرَى، كقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: 7]، والغاشيةُ: الّذين يَغْشَونكَ يَرجونَ فَضلَكَ. والغاشيةُ: القيامةُ[1]. ويقولون: انجلَتْ عنهُ غَشيةُ الحمّى؛ أي: لَمَّتُها، ونَزَلَت به غَشيةُ الموتِ، وغُشيَ عليه، وأصابه غُشيٌ، وعلى قلبه غِشاوة فما يقبلُ الحقَّ[2]، والمقصودُ بالغاشية في الآية: العقوبةُ الّتي تُحيطُ بمَن نزلَت بهم.

5) ﴿بَغۡتَةً﴾: جذرُ الكلمة (بغت)؛ والبَغتُ والبَغتةُ: الفجأةُ، وفي التّنزيل: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةً﴾ [العنكبوت: 53]؛ أي: فجأةً، بغَتَه الأمرُ يَبغتُهُ بَغتًا: فَجَأَهُ[3]، بغتَهُ الأمرُ وباغَتَه، وجاءَهُ بَغتَةً[4]، والمقصودُ أن تأتيَهُمُ السّاعةُ من غيرِ سابقةِ إنذارٍ وتنبيهٍ.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

غَفلةُ الجاحِدينَ واستشعارُهُم بالأمنِ منَ العقوباتِ سببُ كُفرِهم

تُبيِّنُ الآياتُ أنَّ المشركينَ يمرّون على آياتٍ كثيرةٍ دالَّةٍ على الحقِّ ممّا يُشاهدونَه، لكنَّهم يمرّون عليها وهم معرضون عنِ التَّفكُّرِ بما فيها منَ الدّلائلِ والبراهينِ على صدقِ رسالاتِ الأنبياءِ - والتي لا تَنقضي لِكثرتِها - والآياتِ الشّاهدةِ على عظيمِ خلْقِ اللّه وقُدرتِه وقيّوميّتِه سبحانَه على ما خَلَقَ منَ السّماواتِ والأرضِ، وما فيهما من أنظمةٍ وسُننٍ كونيّةٍ عظيمةٍ، وسببُ ذلك غفلتُهُم ووقوعُهُم في شَرَكِ الأمنِ مِن مجيءِ العقوباتِ المُحيطةِ بهم، أو أن تأتيَهُمُ السّاعةُ فَجْأةً دونَ سابقِ إنذارٍ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

معنَى الواوِ ودلالتُها:

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

(1) الخليل، العين: (غشو، غشي).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (غشي).
(3) ابن سيده، المحكم: (بغت).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بغت).

للعطفِ على جملة: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ [يوسف: 102]؛ باعتبار إفادتِها أنّ هذا القرآنَ وحيٌ منَ اللّه، وأنّه حقيقٌ بأن يكونَ داعيًا سامِعيهِ إلى الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ؛ أي: ليسَ إعراضُهم عن آيةِ حصولِ العلمِ للأُمّي بما في الكتب السّالفةِ فحسب؛ بل هُم مُعرِضونَ عن آياتٍ كثيرةٍ في السَّماوات والأرض[1]. وقد شملَتِ الآياتُ الكونيَّةُ النّاسَ جميعًا لِقُدرتِهم جميعًا على التَّفكُّرِ بها ومَعرفةِ عظيمِ شأنِ اللّه فيها.

استواءُ الكافرين في إعراضِهم عنِ الحقِّ في الآيات القرآنيَّةِ والكونيَّةِ

دلالة استعمالِ ﴿وَكَأَيِّن﴾ على التَّكثير:

معنى ﴿وَكَأَيِّن﴾؛ معنى (كم) الخبريّةِ الّتي تأتي للتَّكثير[2]، وقد استُعملَت في هذا السّياقِ لبيان كثرة الآياتِ الّتي بسطَها اللّه في الأرض، وقد غَفَلَ عنها المشركونَ، وقد أُشرِبَت معنى التَّعجُّبِ والاستفهامِ؛ أي: على كثرة هذه الآياتِ المَبسوطةِ، والدّلائلِ المَمدودَةِ، والبراهينِ المَكشوفةِ، وهُم بعدَ ذلك كلِّه لا يَرعَوونَ عن كفرِهم وجُحودِهم!.

كثرةُ الآياتِ الكونيَّةِ لا تُؤثِّر فيمَن غرقَ في الشَّهواتِ الشَّيطانيّةِ

فائدةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفعليِّ:

قُدِّمَ المُسنَدُ إليه ﴿وَكَأَيِّن﴾ على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿يَمُرُّونَ﴾ للتّشويقِ؛ إذ عندما يسمعُ المُخاطَبُ ﴿وَكَأَيِّن﴾ الدّالّةَ على التّكثير يَتشوَّقُ لمعرفة ما بعدَه، ولا سيَّما أنّه جاء ﴿مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فتشويقُ السّامعِ لمعرفةِ الخبر يدلُّ على زيادة التَّعجُّبِ من صنيعِهم في الجُحودِ والكُفرانِ وعدمِ الاعتبارِ من مشاهدِ الأكوانِ.

تشويقُ المُخاطَبِ يُؤكِّدُ معنى التَّعجُّبِ والإنكارِ

دَلالةُ دخولِ ﴿مِّنۡ﴾ على تمييزِ ﴿وَكَأَيِّن﴾:

التّكثيرُ المُستفادُ من ﴿وَكَأَيِّن﴾ واقعٌ على تمييزِها، وهو لفظُ ﴿ءَايَةٖ﴾، فدلالةُ ﴿مِّنۡ﴾ هو التَّأكيدُ على التّكثير، وفيها معنى العُموم؛ أيْ: أيُّ آيةٍ مهما كانت واضحةً فهُم يمرّونَ عليها دونَ اعتبارٍ أو اتّعاظٍ.

تأكيدُ كثرةِ الآياتِ لزيادةِ التَّعجُّبِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/344.

فائدةُ تَنكير ﴿ءَايَةٍ﴾:

وفي كُلّ شيءٍ لهُ آيةٌ تدُلُّ على أنَّهُ واحِد

أفادَ تنكيرُ ﴿ءَايَةٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ العُمومَ، فيدخُلُ فيها كلُّ آيةٍ فيها برهانٌ على وحدانيّةِ اللّه تعالى، بقرينةِ ذكرِ الإشراكِ بعدَها[1]، وفائدةُ تنكيرِها كذلك هو عظيمُ شأنِها؛ لدلالتِها على عظيم شأنِ اللّه تعالى، فكلُّ آيةٍ من آياتِ الخلْقِ هي عظيمةٌ في شأنها، وتكفي دليلًا لتحقيق الإيمانِ بالخالِق سُبحانَه.

براعةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ:

الـكـونُ كـتـابُ الـلـه المـنـظـورُ، والـقـرآنُ كتابُ الله المَسطورُ

أفادَ حرفُ الظَّرفيّةِ في قولِه تعالى: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الظَّرفيّةَ المكانيّةَ، وهي ظرفيّةٌ حقيقيّةٌ، وحرفُ الجرِّ ﴿فِى﴾ هو للوِعاء؛ لأنَّه جعلَه إذ أدخلَه فيه كالوعاءِ له[2]، فتكونُ السّماواتُ والأرضُ كالوعاء لتلك الآياتِ، وفائدةُ ذلك أنّها آياتٌ وبراهينُ علميّةٌ كونيَّةٌ مُندَرِجةٌ في مُفرداتِ السّماواتِ والأرضِ، وهي مُضمَّنةٌ في كُلِّ دقيقةٍ من دقائقِ خلْقِ السّماواتِ والأرضِ، وهو يدُلُّ على استقرارِ الآياتِ في السَّماواتِ والأرضِ فلا تغيبُ عنهم.

نُكتةُ جمعِ السّماوات وإفرادِ الأرض:

سَعةُ السّماوات الشّاملةِ لعظيمِ الآيـاتِ، وقـربُ الأرض الشّاملةِ لواضحِ الآياتِ

نُكتةُ الجمعِ والإفرادِ في قولِه تعالى: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للدّلالةِ على سَعةِ السَّماءِ ومَحدوديّةِ الأرضِ، وقد كثُرَ الكلامُ في نُكتةِ جمْعِ السّماءِ وإفرادِ الأرضِ، ويقومُ في غالبِه على التَّوجيه اللَّفظيِّ[3]، وقد قدَّمَ كثيرٌ مِنَ المُفسّرينَ أجوبةً على ذلك، فمنها: "الإشارةُ إلى تفاوتِهما في الشّرفِ، فجَمَعَ الأشرَفَ اعتناءً بسائرِ أفرادِه، وأفردَ غيرَ الأشرَفِ. والأرضُ وإنْ كانَت دارَ تكليفٍ، ومَحِلَّ الأنبياءِ عليهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/308، والمبرّد، المُقتضب: 4/139.
(3) ابن القيّم الجوزيَّة، بدائع الفوائد: 1/115، 114.

الصّلاة والسّلام، فليسَ ذلك إلّا للتّبليغِ، وكَسبِ ما يجعلُهُم مُتأهِّلينَ للإقامةِ في حضيرة القُدسِ؛ لأنّها ليسَت بدارِ قَرارٍ"[1].

نُكتةُ تَقديمِ السّماواتِ على الأرض:

لأشرفيَّةِ السّماءِ؛ لأنّها مَحلُّ الملائكةِ المُقدّسينَ على تَفاوُتِ مَراتبِهِم، وقِبلَةُ الدُّعاءِ، ومِعراجُ الأرواحِ الطّاهرةِ، ولِعظمِها وإحاطَتِها بالأرض، وعِظَمِ آياتِ اللّه فيها، وفيها الجنّةُ الّتي هي مَقَرُّ الأحبابِ ولغير ذلك.

معنَى التّعريفِ في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

التّعريفُ في لفظِ السّماواتِ والأرضِ للعهدِ الذِّهنيِّ، فإنَّ السّامعَ يَستحضِرُ عند سماعِ هذين اللّفظَين المعنَى المُتبادَرَ، وهو السّماءُ الّتي تَعلونا، والأرضُ الّتي نعيشُ فيها.

فائدةُ استعمالِ فنِّ الطِّباقِ:

في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ طِباقٌ من جوانبَ عدّةٍ، فالأرضُ بالنِّسبة للإنسانِ تحتيّةٌ والسَّماءُ عُلويَّةٌ، والأرضُ مفردةٌ والسّماواتُ جمعٌ، والسّماواتُ هي الكونُ كلُّه، والأرضُ جزءٌ منها. ويفيدُ ذلك الطِّباقُ معنى الشّمولِ؛ إذ إنّ الآياتِ موجودةٌ في كلّ شيءٍ من حولِهم، من دقائقِ الخلقِ إلى عظائمِه، مثل: النّجومِ والمَجرّاتِ، وهذا التّقابلُ بين السّماواتِ والأرضِ يدُلُّ على معنى الشُّمولِ والعُمومِ للآياتِ كلِّها.

التّقابُلُ بين الأضدادِ يُقوّي معنَى الشُّمولِ

فائدةُ استعمالِ لفظِ المرور:

استُعمِل لفظُ المرور دونَ مرادفاتِه في قوله تعالى: ﴿يَمُرُّونَ﴾؛ للدّلالة على سرعة مُرورِ هؤلاء بالآياتِ المُشاهَدةِ دون الانتفاعِ بها، وعلى عدم اكتراثِهم بها، فإنَّ المارَّ لا يكتَرِثُ بما مرَّ عليه؛ لذلك هو لا يعقلُ الحقائقَ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم

الغافلُ عن الآياتِ مُسرِعٌ عن حقائقِها، مُتجاوزٌ لعِبَرِها

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/77.

مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصّافّات: 137 - 138]، فهي بمعنى مرورِ النّاس وسيرِهم في الأرض دون التَّفكُّرِ فيما خلقَ الله تعالى فيها منَ الجبالِ، والأنهارِ، والبيئاتِ، والنّظرِ في ملكوت السّماواتِ والأرضِ، فهُم على الضّدِّ من صنيعِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام: 75].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ المجازيِّ:

يَلزَمُ عنِ المرورِ المُشاهَدةُ الاعتباريَّةُ لا الغفلةُ الاغترارِيَّةُ

شبَّهتِ الآيةُ مشاهَدةَ الآياتِ السّماويّةِ والأرضيّةِ دونَ اعتبارٍ بالمرور مع الاغترارِ، فهو مرورُ الفكرِ والتَّدبُّرِ ودراسةِ الحقائقِ وقوانينِ الخلقِ ونواميسِه، على سبيل الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيَّةِ، أو يكونُ من باب المَجازِ المُرسَلِ بإطلاقِ المرورِ وإرادةِ المُشاهَدةِ؛ إذِ المُشاهَدةُ من لوازمِ المرورِ، وهذا معنى قولِ ابنِ عاشور رحمَه الله تعالى: "والمُرورُ مَجازٌ مَكني به عنِ التَّحقُّقِ والمُشاهَدةِ؛ إذ لا يَصِحُّ حَملُ المرورِ على المعنى الحقيقيِّ بالنِّسبة لآياتِ السّماواتِ"[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَمُرُّونَ﴾:

كنايةٌ عنِ العنادِ على الكفرِ والإصرارِ على الغفلةِ

دلَّ التّعبيرُ بصيغةِ المُضارعِ في قولِه تعالى: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا﴾ على عنادِ المُشركينَ في كفرِهم وجحودِهم، فهُم مع تجدُّدِ انتقالِهم ومرورِهم بالآياتِ الكونيّةِ، وكثرةِ مُشاهَداتِهم لها؛ لا يؤمنونَ، ولا يَعتبرونَ، بل يُعرِضونَ، فهذا التَّعبيرُ كنايةٌ عن إصرارِهم وعنادِهم على الكفرِ، وعدمِ الاستجابةِ إلى البراهينِ المُقنِعةِ والآياتِ الواضحاتِ، وهُم مع الآياتِ القرآنيّةِ أشدُّ كفرًا.

بَراعةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

قوّةُ وُضوحِ آثارِ الآياتِ الاستدلاليَّةِ كقوّةِ الآياتِ نفسِها

استعملَ النّظمُ الكريمُ حرفَ الاستعلاءِ في قولِه تعالى: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا﴾، والضّميرُ عائدٌ على الآية؛ أي: يمرّونَ على الآية، ففيه بيانٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.

أنَّهُم مُتمكِّنون منَ المرورِ على الآياتِ ومُشاهَدتِها، لا أنَّهم يمرّونَ دونَ تمكُّنٍ، ففيه إقامةُ الحجَّةِ عليهم، في كونِ الآياتِ قريبةً منَ العقولِ المُتفكِّرةِ، والأذهانِ المُتدبِّرةِ لِمن أراد الوصولَ إلى الحقِّ، وبلوغَ درجةِ اليقين. والاستعمالُ مَجازيٌّ؛ إذ لا يُتصوَّرُ المرورُ على الآية مرورًا مَحسوسًا، وهو تعبيرٌ أخّاذٌ؛ إذ شبَّه آثارَ الآياتِ العقليّةِ والاستدلاليّةِ بالآياتِ نفسِها، فهو استعارةٌ تصريحيَّةٌ.

مَوقِعُ جملةِ الحالِ منَ السّابقِ:

جملةُ ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ حاليَّةٌ، وهي وصفٌ لحال النّاسِ، وهم يمرّونَ على الآيات العظيمةِ فهُم يرونَها؛ لكنّهم لا يعقلون عظيمَ شأنِ اللهِ في خلقِ تلك الآياتِ وتقديرِها، فترى حالَهم مُعرِضينَ عنها، فهُم يمرّونَ مُسرِعينَ مُتجاوزينَ، وحالُهُمُ الإعراضُ، فيكونُ مَوقِعُ جملةِ الحالِ بيانَ سببِ عدمِ الاعتبارِ منَ الآيات، وهو الإعراضُ، فمَن لم يحرِصْ على النَّظر من تلقاءِ نفسِه لم يَعتبرْ لإنقاذ نفسِه.

مَـن لـم يَعتبرْ مِن تلقاءِ نفسِه لم يسعَ لإنقاذِ نفسِه

فائدةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ:

قُدِّمَ المُسنَدُ إليه ﴿وَهُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ على المُسنَد الفعليِّ للتّوكيدِ وتَقويةِ الحكم؛ فالآيةُ تبيّنُ مدى سفاهةِ النّاسِ الّذين لا يُؤمنونَ، على الرّغم ممّا يُشاهدونَ منَ الآياتِ العظيمةِ المُتجدِّدةِ مع الزّمن، والّتي لا تنتهي. وفائدةُ هذا التّوكيدِ بيانُ لظاهرةِ إعراضِ النّاسِ عنِ الحقّ، واتّخاذِ غيرِ سبيلِ الرّشدِ والهدايةِ.

إعـراضُ النّاسِ عنِ الحقّ ظاهرةٌ بشريّةٌ سببُها غفلةٌ شيطانيَّةٌ

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ قُدِّمَ شبهُ الجملة: ﴿عَنْهَا﴾ على قوله: ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لإفادةِ العنايةِ بأمر هذه الآياتِ العظيمةِ المُستمرَّةِ المُشاهَدةِ أو المعلومةِ بالعقل؛ إذ يفيدُ ذلك التّخصيصُ إثباتَ الحُجَّةِ على المُنكِرينَ، والّذين لا يؤمنون؛ وهذا

الإصـــرارُ على الإعـــراضِ، وإثباتُ الحُجّةِ على أكثرِ النّاسِ

الإعراضُ يُظهرُ جانبًا من مَلامحِ النّفسِ البشريّةِ، وما تتضمَّنُهُ منَ الإصرار على تجنُّبِ سُبلِ الهدايةِ، واتّخاذِ سبيلِ الغيِّ طريقًا.

بَلاغةُ ذكرِ حرفِ (عن):

الإعـــراضُ عـنِ الـحـقّ وتـجـاوزُ أسـبـابِـهِ قَـرِيـنـا الـكُفرِ

ذُكِرَ حرفُ (عن)، ولو افترضنا حذفَه لفُهِمَ المقصودُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ فلو قيلَ: (وهُم مُعرضونَ) لكان المعنى صحيحًا؛ لأنَّ الإعراضَ فيه معنى التَّجاوزِ، لكنَّه آثرَ ذكرَ هذا الحرفِ؛ لبيانِ أنَّ الإعراضَ جانبٌ من جوانب الكِبرِ الّذي في نفوسِهم عن هذه الآيات العظيمةِ، ومَظهَرٌ مِن مظاهرِهِ؛ وأنّ (عن) تفيدُ المُجاوزةَ؛ أي: إنّهُم تجاوزوا البراهينَ والحُجَجَ الدّامغةَ مع وضوحِها في نفسِها إلى الإصرارِ والتّعنُّتِ، فجمعوا بينَ الإعراضِ والتّجاوزِ.

نكتة المجازِ المُرسَلِ بذكرِ الإعراضِ دونَ الكفر:

الـتَّـنـبـيـهُ عـلـى خـــطـــورةِ الأسبابِ، وأنَّها أصلُ المُسَبَّباتِ

ذَكرَتِ الآيةُ الإعراضَ دون الكفرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ لبيانِ سببِ الكفر، فاكتفَتِ الآيةُ بذكرِ الإعراضِ دونَ الكفرِ؛ فلم يقُلْ: (وهُم بها كافرون)، مع أنّ السّياقَ يُقرِّرُ كفرَهُم باللّه تعالى؛ لإبرازِ سببِ الكفرِ، وهو إعراضُهُم عنِ التَّفكُّرِ في آياتِ اللّه وحُججِهِ، ففي الآية مَجازٌ مُرسَلٌ بذكرِ السّببِ وإرادةِ المُسبَّبِ، وعلاقتُهُ السَّببيَّةُ؛ تنبيهًا على خطورةِ السّببِ وآثارِهِ البليغةِ في الكفر.

فائدةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿مُعْرِضُونَ﴾:

التّعبير باسْمِ الفاعلِ يدلُّ على تمكُّنِ الفعْلِ بصاحبِه حتّى باتَ اسْمًا له، وهذا يدلُّ على شدّة إعراضِهم عنِ الحقِّ.

معنَى الواوِ ودلالتُها:

ذكرُ نفْيِ الإيمانِ بـعـدَ الإعـــراضِ دليلُ الاستمرارِ وأمارةُ الإصْرارِ

الواو في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ تحتملُ أن تكونَ عاطفةً[1]، وتحتملُ أن تكونَ في مَوضِعِ الحالِ من ضمير ﴿يَمُرُّونَ﴾؛

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/61.

أي: وما يُؤمِنُ أكثرُ النّاسِ باللّه إلّا وهُم مُشركون به، وهذا إبطالٌ لِما يَزعمونَهُ منَ الاعترافِ بأنّ اللّه خالقُهُم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: 38]، وبأنَّ إيمانَهُم باللّه كالعَدَمِ؛ لأنَّهُم لا يُؤمنونَ بوجودِ اللّه إلّا في تَشريكِهِم معهُ غيرَهُ في الإلهيَّةِ[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ:

الإيمانُ الظّاهرُ لأكثرِ النّاسِ يَغرُّ الجاهلَ ويُؤلِمُ العاقلَ

عبَّرتِ الآيةُ بالفعلِ المضارعِ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ للدّلالةِ على الحالِ تنصيصًا؛ لأنّ الفعلَ جاء مَنْفيًّا بـ (ما)، فتكونُ أحوالُ أكثرِ النّاسِ أنّهم لا يَدورونَ في حلقةِ الشِّركِ، فإذا ذكروا اللّه، واحتاجوا إلى عونِهِ، وتفكَّروا في عظيمِ خلْقِهِ ممّا جعلَ لهُم منَ الآياتِ العظيمةِ؛ فإنّهم يَسلكونَ مَسلكَ الإشراكِ بأساليبَ شتّى؛ تُمليه عليهم شياطينُهُم، فإيمانُهُم الظّاهرُ يَغُرُّ الجاهلَ، وشركُهُم الباطنُ يُؤلمُ العاقلَ.

فائِدةُ التَّعبيرِ بالأكثريَّة:

عُمومُ أحوالِ النّاسِ تَشوبُها حالاتُ الشّركِ باللّه تعالى

أُسندَ نفيُ الإيمانِ إلى ﴿أَكْثَرُهُم﴾ باعتبارِ أكثرِ أحوالِهِم وأقوالِهِم؛ لأنَّه قد تصدُرُ عنِ المُشركينَ أقوالٌ خاليةٌ عن ذكرِ الشَّريكِ. وليسَ المُرادُ أنَّ بعضًا منهُم يؤمنُ باللّه غيرَ مُشركٍ معَه إلهًا آخرَ[2]. وإذا قُصِدَ بضميرِ (هم) النّاسُ جميعًا كانَ معنى قولِه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾؛ أي: وما يُقرُّ أكثرُ النّاسِ بوَحدانيّةِ اللّه وبألوهيّتِه، وبكونِهِ الخالقَ الرّازقَ المحيي المُميتَ في حالٍ منَ الأحوالِ ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ باللّه تعالى؛ أي: إلّا في حالِ إشراكِهم باللّه تعالى في عبادتِهم سواهُ منَ الأصنامِ والأوثانِ والملائكةِ والبشرِ، فالكافرونَ مُقرّونَ بوجودِ اللّه تعالى، لكنَّهم يُثبتونَ له شريكًا في المَعبوديّة[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/63.

أكـــثرُ الـنّـاس يُخالفونَ الحقَّ ومُقتضياتِهِ

أوِ "المُرادُ بـ ﴿أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف: 103]: أهلُ الشِّركِ منَ العربِ. وهذا إبطالٌ لِما يَزعُمونَهُ منَ الاعترافِ بأنَّ اللّه خالِقُهُم، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزّمر: 38]، وبأنّ إيمانَهُم باللّه كالعَدَمِ؛ لأنَّهم لا يُؤمنون بوجود اللّه إلّا في تَشريكِهِم معهُ غيرَهُ في الإلهيّة"[1]. فهؤلاء هُمُ الأنموذجُ للأكثريّة منَ النّاس، كما أنّنا نجدُ في القرآنِ الكريمِ آياتٍ تَصِفُ أحوالَ أكثرِ النّاسِ بحالِ الشِّركِ والكُفرِ والجهلِ وغيرِها؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ٤٢﴾ [الرّوم: 42]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٥٠﴾ [الفرقان: 50]، وقولِه سبحانه: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣﴾ [العنكبوت: 63]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: 187]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١﴾ [غافر: 61].

تعيينُ مَرجِعِ الضَّمير:

مُشركو العربِ أُنموذَجُ خلطِ الإيمانِ الزّائفِ بالشِّركِ الظّاهرِ

ذَكَرَ المُفسّرونَ أنَّ المُرادَ بالضَّميرِ في قولِهِ: ﴿أَكۡثَرُهُم﴾ مُشركو العرب؛ لأنّهُم الأنموذجُ الأوّلُ في هذه الحال، ثمَّ يُعمَّمُ هذا الأنموذجُ على جميعِ أهلِ الأماكنِ والأزمانِ، فهي حالةٌ بشريّةٌ عامّةٌ. فمعنى قولِه: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم﴾ في إقرارِهِم باللّه، وبأنَّه خلقَهم وخلقَ السّماواتِ والأرضَ، إلّا وهم مُشركون بعبادتِهِ الأوثانَ أو ما يقومُ مقامَها. "وعنِ الحسن: هُم أهلُ الكتابِ معَهم شركٌ وإيمانٌ. وعنِ ابن عبّاس ﷺ: هُمُ الّذينَ يُشبّهون اللّه بخلقِه"[2].

دَلالةُ اختيارِ لفْظِ الجلالةِ:

أذهـانُ الـنّـاسِ مُعلّقةٌ بالاسْمِ الأعظمِ (الله)

آثرَ النَّظمُ الكريمُ ذكرَ عنوانِ الألوهيّةِ لا الرّبوبيّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾؛ وذلك أنَّ المُشركينَ هُم يَعترفونَ بتوحيد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/479.

الرّبوبيّةِ دونَ الألوهيّة، فحَسُنَ ذكرُ ما يُشركونَ به، وهو توحيدُ الألوهيّةِ، ولمزيدِ تقبيحِ فعلِهم وتشنيعِ مُرتكَبِهم، فهُم وإنْ أقرّوا بربوبيّة الله تعالى، وأنَّه الخالِقُ الرّازِقُ المُدبِّرُ لجميع الأمور، فإنَّهم يُشركونَ في الألوهيّةِ.

فائدةُ جملةِ الحالِ:

اقترانُ الشِّركِ بالإيمانِ مُنادٍ بالعقوبةِ مُستَنزِلٌ للغضبِ

جملةُ ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ حالٌ من ﴿أَكْثَرُهُم﴾، والمقصودُ من هذا تشنيعُ حالِهم[1]؛ أي: لا يكونُ منهُم إيمانٌ إلّا ويُلابسُه شركُهم، ويقارنُهُ جحودُهُم، فهؤلاء الّذين وصلوا إلى هذه الحالِ لم يبقَ عليهِم إلّا أن يَحلَّ بهم العذابُ، ويَفجأهُمُ العقابُ، وهُم آمنون[2]؛ أي: وما يُؤمِنُ أكثرُ هؤلاء الضّالّينَ باللّه في إقرارِهم بوجودِه، وفي اعترافِهم بأنّه هو الخالِقُ، إلّا وهُم مُشركونَ به في عقيدتِهم وفي عبادتِهم وفي تصرُّفاتِهم، فإنّهُم مع اعترافِهم بأنّ خالِقَهم وخالِقَ السّماواتِ والأرضِ هو اللّه، لكنّهم مع ذلك كانوا يَتقرَّبونَ إلى أصنامِهم بالعبادة، ويقولونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: 3]، والآيةُ تشمَلُ كلَّ شركٍ سواء أكان ظاهرًا أم خفيًّا، كبيرًا أم صغيرًا[3].

بَراعةُ التَّعبيرِ بالشِّركِ دونَ الكفرِ:

الشّركُ هو اعتقادٌ بوجودِ آلهةٍ مع الله

آثرتِ الآيةُ استعمالَ لفظِ الشّركِ دونَ الكُفرِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾؛ وذلك أنَّ الكفرَ واضحٌ في مناقضتِهِ للإيمان، فذَكَرَ الشّركَ لبيانِ أنَّ غالبَ ما يقعُ النّاسُ في ظلمتِهِ هو الشِّركُ؛ للحذرِ منه، والابتعادِ عن أسبابِه، وعلى رأسها اعتقادُ أنَّ أحدًا نافعًا أحدًا غيرُ اللّه تعالى، فذَكَرَ الشِّركَ، وهو مبدأُ الكفرِ، وبوابةُ الجحودِ، وأصلُ كلِّ مُنكَرٍ، وأساسُ كلِّ باطلٍ، والنّاسُ مُتفاوتونَ فيه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن: 1/406.
(3) طنطاويّ، الوسيط: 7/422.

وبسبب تفاوتِهم قد يقعُ في خاطر بعضِ النّاسِ أنَّ قليلَه لا يضرُّ؛ فنبَّهتِ الآيةُ على أنَّ الشِّركَ يتخلَّلُ أكثرَ النّاسِ، ومنهُم مَن يؤمِنُ باللّه تعالى.

نُكتةُ حذْفِ مُتعلَّقِ ﴿مُّشْرِكُونَ﴾:

الشِّركُ لا يكونُ إلّا مـع الـلـه تعالى

ومُتعلَّقُ ﴿مُّشْرِكُونَ﴾ مَحذوفٌ دلّ عليه ما قبلَه؛ أي: لا يُؤمِنُ أكثرُهُم باللّه إلّا وهُم مُشركونَ به سبحانَه، فحذفَ لفظَ الجلالة أوِ الضَّميرَ الدّالَّ عليه؛ أي: مُشركون باللّه؛ وذلك لِورودِهِ مع قضيّة الإيمانِ، وذلك أجملُ للنَّظم، وأنسبُ أن يُذكَرَ الإيمانُ مع لفظ الجلالةِ، ويُكتفَى بذلك فلا يُذكَرُ مع الشّرك، أو أن يُرادَ بالإشراك الفعلُ اللّازمُ؛ أي: الاتّصافُ به سلوكًا واعتِقادًا، ولا مانعَ من إرادتِهما معًا.

فائِدةُ التّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿مُّشْرِكُونَ﴾:

العـراقـة في الـشّـرك حتى صار علَمًا

التّعبيرُ باسْمِ الفاعلِ يدلُّ على تمكُّنِ الفعلِ بصاحبِه حتّى بات اسمًا له، وهذا يدلُّ على شدّة شِرْكهم باللّه.

بلاغةُ التَّهكُّمِ بتأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبهُ ضدَّه:

إيمانُ الجاحِدين شِـرْكٌ يُحيطُ به إعراضٌ

جملةُ: ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾؛ حالٌ من ﴿أَكْثَرُهُم﴾، والمقصودُ من هذا تشنيعُ حالِهم. والأظهَرُ أن يكونَ هذا من قبيل تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّهُ على وجه التَّهَكُّم[1]؛ أي: إنْ آمنوا فإيمانُهُم هو إيمانُ المُشركين؛ إذ كيف يكونُ الإنسانُ مُؤمِنًا مع بقاء لوثةِ الإشراكِ في أقوالِه وأفعالِه؟! فذَكَرَ إيمانَهُم مُؤكِّدًا ذلك بوجود بعضِ مُقوِّماتِ الشّركِ لديهِم، تهكُّمًا بإيمانِهم الّذي لا يُعدُّ إيمانًا، وإنّما هو وجهٌ من وجوه الإشراكِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.

غَرَضُ الاستفهامِ:

الأمانُ من عَذابِ اللهِ تعالى غفلةٌ توجِبُ التَّوبيخَ

في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ استفهامُ توبيخٍ وتقريعٍ؛ لأنَّه كائنٌ على فعلٍ قد وقَعَ، فَأمانُهُم من عذاب اللّه واقِعٌ منهُم، فاستحقّوا على ذلك التّوبيخَ والتَّهديدَ، وهو يمكنُ كذلك إنْ لَم يقعْ هذا الأمانُ من عذاب اللّه عند بعضِ القومِ؛ ليكونَ المعنى: أنّ ذلك الأمانَ لا ينبغي أن يكونَ منَ النّاس، فهو تحذيرٌ لهُم من ذلك الأمانِ والطّمأنينةِ. فليسَ لأحدٍ أن يأمنَ عذابَ اللّه، ولكن ليستَعِذْ من عذاب اللّه سبحانَه.

معنَى الفاءِ وتعيينُ المعطوفِ عليه:

من أمِنَ مكْرَ اللهِ لـم يـخَـفْ من عذابِه

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ عاطفةٌ على محذوف؛ أي: "أغَفَلَ هؤلاء المُشركون عن مكر اللّه تعالى، فأمِنوه، ولم يَخافوا؟!"[1].

بَراعةُ الجمْعِ بين نفيِ الإيمانِ وإثباتِ الأمانِ في سياقٍ واحدٍ:

تـمـامُ الـوقـاحـةِ وكمالُ الشّناعةِ الأمنُ في مَوضِعِ العقوبةِ

بعد أن نفتِ الآيةُ السّابقةُ الإيمانَ باللّه تعالى عنهم إلّا في حال شركِهم، أثبتَت هنا الأمانَ من مكرِ اللّه تعالى، وفي هذا الجمعِ بين نفيِ الإيمانِ وإثبات الأمانِ تشنيعٌ عليهم، وتقبيحٌ لبَلادةِ فكرِهم، وتفظيعٌ لسوءِ مُرتكَبِهم، فهُم يأمنونَ مكرَ اللّه من حيث يُشركونَ به! فهو تفظيعٌ لحالِهم وجُرأتِهم على خالِقِهم، والاستمرارِ على ذلك دونَ إقلاعٍ؛ فبيّنتِ الأولى إعراضَهُم، وبيّنتِ الثّانيةُ إشراكَهم، فكأنَّ إعراضَهُم عن آيات اللّه وإشراكَهُم باللّه جانبٌ من جوانب أمانِهِم من وقوعِ غضبِ اللّه عليهم، أن تأتيَهُم غاشيةٌ من عذابِهِ في الدُّنيا أو تأتيَهُم السّاعةُ بَغتةً، فَتَحولُ بينَهُم وبينَ التَّوبةِ، ويَصيرونَ إلى العذاب الخالِدِ[2].

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/135.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَن﴾ والمُضارعِ بدلَ المَصدر:

التّهديدُ المُقترنُ بالتَّحذيرِ رحمةٌ ورأفةٌ بالعبادِ

جاءَ التّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿أَن تَأۡتِيَهُمۡ﴾؛ بحرف ﴿أَن﴾ المصدريِّ، وهو يدخلُ على الفعل المضارع فينصبُهُ ويَصرِفُهُ إلى الاستقبال[1]، وهو أبلغُ منَ التّعبير بالمصدرِ (إتيان)؛ لِما فيه من معنى التَّهديدِ بما سيأتي مُستقبَلًا، وهو مَشوبٌ بمعنى التَّحذير، وهو دليلُ رحمةِ اللّه تعالى بهِم؛ إذ إنذارُ النّاسِ وتحذيرُهُم منَ العقوبةِ كاشفٌ عن حرصِ القرآنِ على إنقاذِهم.

بَلاغةُ اخْتيارِ ﴿غَٰشِيَةٌ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الغاشيةُ تُحيطُ بالجميعِ، فلا مَهربَ ولا مَفلتَ منها

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ ﴿غَٰشِيَةٌ﴾، وهي نقمةٌ وعقوبةٌ تغشاهُم، وقيلَ: ما يغمرُهُم منَ العذابِ ويجللهم[2]؛ لِما في هذا اللّفظِ منَ الإحاطةِ والإقفالِ عليهِم، فلا مَخرجَ منها، ولا مَفرَّ من عذابِها. ومن معاني الغاشيةِ العزلُ التّامُّ عنِ الخارج فلا يُعرَفُ حالُهم، ولا يُنقذونَ مِن أحدٍ. فالتَّعبيرُ بالغاشيةِ وهي اسمُ فاعلٍ أو صفةٌ مُشبَّهةٌ؛ لبيانِ أنْ لا مَهربَ ولا مَفلتَ لأحدٍ منها، وفيه مزيدُ تهديدٍ ووعيدٍ.

غرَضُ تَنْكيرِ ﴿غَٰشِيَةٌ﴾:

إبْهامُ العذابِ تَفظيعٌ وتحذيرٌ

جاءَ تنكيرُ ﴿غَٰشِيَةٌ﴾ لغرَضِ التَّعظيمِ من شأنِها، وما يمكنُ أن تفعلَه، أو تُحدِثَه من آثارٍ، وأفاد كذلك تجهيلَ آثارِها وخفاءَ أشكالِها، فيعظمُ في عينِ السّامعِ شأنُها، وما تتضمَّنُهُ منَ المُفاجآت، وفي النّكرات منَ المعاني ما لا يكونُ في المعارف؛ إذِ الجهالةُ سببٌ في مزيدِ الخوفِ، والإبهامُ قائدٌ لليقظةِ.

معنَى حرفِ ﴿مِّنۡ﴾ ودلالتُهُ:

دلَّ حرفُ ﴿مِّنۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ على الابتداءِ، أي: غاشيةٌ نازلةٌ ابتداءً من عذاب اللّه تعالى، ففيه تهديدٌ بأنَّهم مُنتهى

(1) الرّضيّ، شرح الكافية: 2/57.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/479.

الغايةِ. ويَصحُّ أن تكونَ للجنس؛ أي: بيانِ جنس تلك الغاشيةِ. فلمّا عُلِمَ أنّها من عذاب اللّه عُلِمَ حينَها عظيمُ شأنِ ذلكَ التّهديدِ والوعيدِ.

سِرُّ اخْتيارِ لفظِ العذابِ دونَ العقابِ:

العَذابُ دالٌّ على عظيمِ الأفعالِ وشِدَّةِ المُجازاةِ

في قولِه تعالى: ﴿مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ ذَكَرَ العذابَ دونَ العقابِ؛ والفرقُ بين العقابِ والعذابِ: أنّ العقابَ يُنبِئُ عن استحقاقٍ، وسُمّي بذلك؛ لأنَّ الفاعلَ يستحقُّهُ عَقيبَ فعلِه، ويجوزُ أن يكونَ العذابُ مُستَحَقًّا وغيرَ مُستَحَقٍّ، وأصلُ العقاب التُّلُوُّ، ومنه: عَقَبَ اللّيلُ النّهارَ إذا جاء بعده، وفي التّنزيل: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ [النمل: 10]؛ أي: لم يَرجعْ بعدَ ذهابِهِ تاليًا له مَجيئَهُ، وفيه ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾[1]، والعذابُ يُنبِئُ عن شدّة ما يُلاقي الإنسانُ فيه، فلمّا ذكرَ في الآيات السّابقةِ عظيمَ شركِهم، ذكرَ هُنا عظيمَ ما سَيُلاقونَ من عذاب اللّه تعالى.

معنَى إضافةِ العذابِ للفْظِ الجلالةِ:

عَظمةُ العَذابِ من عظمةِ مَصْدرِه

الإضافةُ هي نسبةٌ بين لفظتَين، تُنسَبُ الأولى إلى الثّانيةِ بغيةَ تعريفِها أو تخصيصِها، والإضافةُ في قوله تعالى: ﴿عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ لتعريف العذابِ بأنّه عذابُ اللّه، وهو أشدُّ وعيدًا وأبلَغُ تهديدًا؛ لأنّه منَ اللّه، وهل أشدُّ وأعظمُ من عذاب اللّه ؟! فهو سبحانَه الّذي خلقَ العذابَ، وقدَّرَ آلامَهُ في الأجساد.

معنَى حرفِ ﴿أَوۡ﴾ ودلالتُهُ:

إهلاكُ الكافرين مُتحقِّقٌ في الدُّنيا، وما بعدَه أشدُّ وأطمُّ

معنى ﴿أَوۡ﴾ في قولِه: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾ للتّنويعِ، أي: أن تأتيَهُم غاشيةٌ من عذاب اللّه تعالى في الدُّنيا فتُهلِكَهُم، أو السّاعةُ فتُهلِكَهُم كذلك، فالمقصودُ مجيءُ شيءٍ يكونُ فيه هلاكُهُم جميعًا، فسواءٌ أصابَتهُم غاشيةٌ خاصّةٌ أو عامَّةٌ فالمصيرُ واحدٌ، وهو الإهلاكُ في الدّنيا، والمصيرُ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 364.

إلى الآخرة، وفيه بيانُ تهاوُنهم في تقدير عظيمِ شأنِ اللّه وقُدرتِه، حتّى إنّهم لا يُفكِّرون بالسّاعة، ولا تخطُرُ ببالهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارع:

إتيانُ السّاعةِ مُتوقَّعٌ في كلّ لحظةٍ، فالحذرُ يجبُ أن يَقترنَ مع كلّ لفظةٍ

في قولِه: ﴿تَأۡتِيهِمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ جاء التّعبيرُ بالمُضارع: ﴿تَأۡتِيهِمۡ﴾ لفائدة تجدُّدِ احتمالِ إتيانِ السّاعةِ في أيِّ لحظةٍ منَ الزّمان القادمِ، فهو يملِكُ المفاجأةَ الّتي كان ينبغي على النّاس أن يَحذروا منها؛ خشيةَ أن يكونَ أمرُ السّاعة فيها، فيكونُ حالُ أكثرِ النّاسِ في غفلةٍ عنِ السّاعة أو عن لحظة الموتِ الّتي هي بمنزلة قيامِ السّاعةِ؛ لانقطاع عملِ النّاسِ، والدّخولِ في أحوال الآخرةِ، وإخفاء آجالِ النّاسِ عنِ المخلوقاتِ كلِّها؛ ولذا جَعَلَ وقتَ قُدومِ الآجالِ يوصَفُ بـ (البغتة)، ويتجدَّدُ ترقُّبُها في كلِّ حين. ويدلُّ التّعبيرُ بالمضارع هنا على استحضار الصّورةِ للقارئ كأنّها رأيُ عيْنٍ.

بَلاغةُ تناسُبِ لفْظِ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ و﴿بَغۡتَةً﴾:

أشارَتْ لفظةُ السّاعة إلى السُّرعةِ، ولفظةُ البغتةِ إلى المفاجأةِ

﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ كنايةٌ عن يوم القيامةِ وأهوالِها، وبلاغةُ اختيارِ هذه الكنايةِ للدّلالة على السّرعة الّتي يمكنُ أن تقعَ فيها تلك الأهوالُ؛ لتدُلَّ على مُدّةٍ زمنيّةٍ قصيرةٍ يمكنُ أن يحضُرَ فيها الموتُ، وحينَها لا رادَّ لقضاء اللّه سبحانَه، وتَنسجمُ اللّفظةُ مع قولِه: ﴿بَغۡتَةً﴾، الّتي تَكتنِهُ فيها السّرعةُ والمفاجأةُ، و﴿بَغۡتَةً﴾ حالٌ بمعنى: مباغتةً مُفاجِئةً لهم، وهي للمُبالغةِ في التّهويل؛ لأنَّ الدّواهي إذا فاجأتِ الإنسانَ كانَت أشدَّ وقعًا ممّا لو تَقدَّمَ عليها علمٌ بها؛ لِتوهُّمِ مَفاداتِها والتّحرُّزِ منها[1]، فاجتمعَت في لفظ السّاعةِ الدّلالةُ المباشِرَةُ على القيامة، والإشارةُ إلى سرعةِ مَجيئِها.

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/145.

معنَى(أل) في ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾:

التّعريفُ هنا للعهدِ، على معنى السّاعةِ التي تعرفونَها، وهذا كنايةٌ عن يومِ القيامةِ.

حكمةُ إتيانِ السّاعةِ بغتةً:

الحكمةُ في إبهامِ وقتِ السّاعةِ أنّ الفائدةَ لا تتمُّ إلّا بذلك، ليخشى أهلُ كلِّ زمانٍ إتيانَها، فَيَحمِلَهُمُ الخوفُ على مُراقبةِ اللّه تعالى في جميعِ أعمالِهم وفي عمومِ زمانِهم.

تـرقّـب قـيـام الساعة يكرّس مـراقـبـة الـلـه الدائمة

مَوقِعُ جملةِ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾:

جملة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ في محلِّ نصبِ حالٍ؛ لبيان حالِهم عندما تأتيهُمُ السّاعةُ، فتأخذُهُم على غفلةٍ من أمرِهم، ولعلّ الشّعورَ هو أدقُّ ما يتحسّسُهُ الإنسانُ في أمورِ حياتِهِ، فيَشعُرُ بأقلّ تأثيرٍ على حواسّهِ من الجسدِ أوِ السّمعِ أوِ النّظرِ أو غيرِها، فلمّا قال هنا: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ صوّرَ للمُتلقّينَ عظيمَ شأنِ تلك البغتةِ أو مجيءَ لحظةِ الموتِ الفارِقَةِ، والمرادُ من كلِّ هذا أنّها تبغَتُ النّاسَ، وهُم مُنهمِكونَ في أمورِ مَعايشِهِم، فلا يَشعرون إلّا وقد أتَتهُم.

وَصـــفُ حـــالِ الـكـافـريـنَ بفقدان الشّعورِ والإحساسِ

غرَضُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفعلِّي المنفيِّ:

أفادَ تقديمُ المُسندِ إليه ﴿وَهُمۡ﴾ على المُسند الفعليِّ المنّفيِّ ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ تخصيصَهُ بحكم التّخصيص؛ أي: إنّ كلَّ مَن وقَعَ في غفلةِ الآياتِ، فهو عنِ السّاعةِ أشدُّ غفلةً، فأفادَت هذه الجملةُ أنّهم خصوصًا لا يَشعرونَ بهذا الحدثِ الّذي هو إتيانُ الغاشية أو إتيانُ السّاعة، فلا تنالُهُمُ الرَّحمةُ الّتي يتغمَّدُ بها اللّه قومًا آخرين اتّقوا هذا اليومَ، ولم يغفُلوا عنه.

الغفلةُ خاصةٌ بمَن غَفَلَ عن آيات الله جزاءً وفاقًا

نُكتةُ التّعبيرِ بحذْفِ مُتعلّقِ الشُّعور المَنْفيّ:

حُذِفَ مُتعلّقُ الفعل ﴿يَشۡعُرُونَ﴾؛ ليدلَّ على انعدام الشّعورِ العامِّ

بكلِّ شيءٍ، وليجعلَ الغافلين على خطِّ الخطرِ لِما هُم فيه مِنَ الغفلةِ عنِ الآخرة. ونكتةُ التّعبيرِ بنفْيِ الشّعورِ هو بيانُ أنَّهم كالأنعام لا يَشعرون ما يكونُ لَهم في قابلِ الأيّام، وعليهِ فأصبحَ انتفاءُ الشُّعورِ عندهم صفةً لازمةً لهم، كأنَّهم خُلِقوا، وهُم لا يَشعرون.

انعدامُ الشّعور عندَ الغافلين عقوبةٌ عاجلةٌ

بَراعةُ تَكرارِ ضميرِ الفصلِ ﴿وَهُمْ﴾:

في تَكرار ضمير الفصلِ ﴿وَهُمْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ براعةٌ في إظهارِ الغافِلينَ على أنَّهم فريقٌ واحدٌ يعودُ عليه ضميرُ الجمع (هُمْ)، فدلَّ على أولئك الّذين يُنكِرون، والّذين يُعارِضون، والّذين هُم مُنشغلون بالدّنيا، غافلون عنِ الآخرة، فهؤلاء هُم أنفسُهم لا غيرُهم، يفعلونَ كلَّ تلك الأفعالِ والخصالِ، ويَشتركونَ فيها.

لفتُ جميعِ الجاحِدين في ثوبِ الغفلةِ والنّكارةِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

البغتةُ والفجأةُ:

الفَجأةُ: ما فاجَأ الإنسانَ، وما يأخذُ الإنسانَ بغتةً. وقد بغتهُ الأمرُ يبغتهُ بغتًا: فَجَأَهُ، والمباغتةُ: المُفاجأةُ. وهو مواجهةُ أمرٍ دفعةً واحدةً، وبدون مُقدِّمةٍ ظاهرةٍ، قال تعالى: ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: 31]، وقال تعالى: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: 44]، ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ [الزُّمر: 55]. وقوله: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ [الأنعام: 47].

البغتةُ باعتبارِ صدورِها عن جِهةٍ، والفجأةُ باعتبارِ وقوعِها على المفعولِ

فـ(البغتة) فجأةٌ مشروطةٌ مقصودةٌ لشخصٍ أو جهةٍ مُعيَّنةٍ، على خلاف (الفجأة) الّتي لا تكونُ مقصودةً لأحدٍ أو مَشروطةً بذلك. فالبغتةُ أخصُّ منَ الفجأةِ، كما أنَّ البغتةَ تكونُ باعتبار صدورِها المُباغِتِ، فهي وصفٌ للفاعل، نقولُ: باغتَهُمُ العسكرُ، بينما الفجأةُ صفةٌ كائنةٌ بمَن وقَعَ عليه الفعلُ، نقولُ: تفاجأ الكسولُ بنتيجتِهِ، فالنّتيجةُ وقعَت على الكسول فتَفاجَأ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»